

**سوسولوجيا الإسلام في الفكر الخلدوني - قراءة في سوسولوجيا الدين****أ.د. يوسف عناد زامل / كلية القانون / جامعة واسط****م.د. أحمد ياسين أحمد / كلية الآداب / جامعة واسط****مقدمة:**

كان ابن خلدون عقلية واضحة كلها ضوء، وإن ضوءه العقلي يمزق كل غموض، إنه من الأتقياء ومن كبار العلماء المسلمين، ومن الشخصيات المرموقة، وأنه على سعة افقه لم يصدر رأياً واحداً يجافي تعاليم الإسلام، بل إن مفاهيمه المتطورة كانت تطويعاً للمجتمع من منطلق روح المبادئ الإسلامية، كان موسوعياً بأبواب الثقافة الإسلامية المختلفة، وأحاط بها إحاطة شاملة، كتب في الكلام وأصول الفقه، كما كتب في التصوف والفلسفة، ومقدمته دليل كاف على علمه الواسع وإطلاعه الغزير. وجعل ابن خلدون العرب محور تفكيره، وأعطاهم الدور الأول في الإسلام فهم حملوا رايته وقاموا بالفتوحات وحددوا نطاق دار الإسلام وهو يرى إن العرب كانت تفرقهم العصبية القبلية وطبيعة العداوة التي تملأ من الوازع لافجاء الإسلام بعصبية جديدة غمرت العصبية الأخرى كما أنه (الإسلام) نقل العرب إلى مرحلة استقرار وتطور حضاري وهو يركز على مضر في هذه الآراء لأن الدولة العربية في الإسلام "دولة مضر" وهو على إيمانه يرى للعرب منزلة خاصة في المجتمعات الإسلامية. ويعد ابن خلدون وفقاً لهذا المفهوم من المفكرين السابقين لزمهم، ومن المبتكرين والمجددين الذين بقيت آرائهم وأفكارهم مصدر وحي دائم ومبعث الهام مستمر، حيث أتى ابن خلدون بما لم يسبق إليه وهو "علم العمران" أو ما يسمى في عصرنا الحالي بعلم الاجتماع الإنساني وكشف عن آراء ونظريات لم يهتدي إليها الباحثون إلا بعد موته بقرون، وهو بهذا يعد بحق في مقدمة أعلام الفكر العربي بل والإنساني. وقد حرص ابن خلدون على أن يجعل مقدمته "إسلامية الوجه قرآنية المبنى والدليل" ونستطيع القول في هذا، أن المجتمع الإنساني والعمران البشري الذي وضع ابن خلدون أساسه ولبناته، فقد ربطه بالرباط الفكري الإسلامي في كل شعبه ويستوي في ذلك نظم الحكم والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية.

ويعد ابن خلدون واحداً من أولئك الإعلام الذين تربوا في أحضان الإسلام وتعاليمه والذين كانت لدعوته القوة أثرها الواضح في حياتهم العلمية والفكرية، فلامح الدين الإسلامي والعربي واضحة جلية فيما كتب. ونظريته الإنسانية تتحلّى في الطريقة التي تناول بها دراسة المجتمعات المختلفة إذ هو في ذلك يصدر عن تفكير علمي تجريدي أصيل وفقه إسلامي إنساني صحيح، وهو في الوقت نفسه أشاد للعرب كأصحاب رسالة دعوة، ولولا مبادئ هذا الدين ما سعدت البشرية بأمثال "ابن خلدون" وإخوانه ممن ساروا معه على الدرب، فكانوا أئمة عصرهم وهداة قومهم ونخيرة الأجيال من بعدهم، لذا تم اختبار موضوع البحث أساساً على ما جاء به من كتابات وعبارات وسطية في كثير ما كتب لاسيما مقدمته التي أنارها لكثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ص)، ليعالج بها علل المجتمع من النواحي الاجتماعية والاقتصادية... الخ.

من المؤكد أن "ابن خلدون" نتاج بيئته وحصاد مجتمعه ونتاج ثقافته، فقد كان عالماً من علماء المسلمين وفقهاء من فقهاء الشريعة، وعالماً من أعلام المذهب المالكي، ومن ثم صدر في نظرياته جميعاً من منطلق إسلامي محض، وهو ما لم ينتبه إليه أحد في الغرب وأكثر دارسيه في الشرق، فنظرية العمران التي تعد أهم منجزاته الفكرية إسلامية جملة وتفصيلاً، ونظريته في مجال العصبية كان سبيله في علاجها سبيلاً إسلامياً وأما نظريته التاريخية التي فتن بها الغربيين - وهي ثاني إنجازاته الفكرية أهمية - فهي تأثر مباشر بمنهج الجرح والتعديل عند علماء الحديث

الشريف ، لقد اعتمد ابن خلدون الأسس الإسلامية وهو يقدم نظرياته ، ونظام الحكم الذي رآه مناسباً للعمران ، وهو نظام الخلافة الإسلامية وتبنى ابن خلدون لعناصر كتاب طاهر ابن الحسين لولده ، حين ولاه المأمون مصر تمثل جوهر النظام الإسلامي في الحكم ، كما تبنى ابن خلدون رسالة الخليفة عمر ابن الخطاب " رض " إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وجعلها الدستور الأمثل لنظام القضاء في مجتمع العمران البشري ، وكيف التزم ابن خلدون بالشرعية الإسلامية التزاماً كاملاً ، لقد كان ابن خلدون إسلامي الخطوات في المقدمة من أولها إلى آخرها ، بحيث يتحتم ألا يكون فكره إلا إسلامياً وهو ما لم ينتبه إليه دارسو الفكر الخلدوني على الأقل إلا من زوايا ضيقة .

ومادام رأس الدولة في العمران الخلدوني هو الإمام أو الخليفة فإنها عنده وظيفة دينية سياسية اجتماعية ، كل هذه الآراء تمثل عمق الفكر ودقة الاستقراء للإحداث التي عاشها ابن خلدون والتي عبرت بشكل واضح عن عمق إيمانه ، ولعلنا نلاحظ وهذا أمر مهم جداً أن ابن خلدون وهو في حديثه عن نظريته في العمران بعيد كل البعد عن " المادية " التي نسبت إليه من بعض الذين أعجبوا به ، بل انه يقرر انسجاماً مع عقيدته في وضوح كامل ، إن معنى العمران هو ما أراده الله من اعتماد العلم ببنى الإنسان واستخلافه إياهم في الأرض ، فالعمران عنده اصطلاح قرآني صريح وقيمه إسلامية واضحة وهو استخلاف الله للإنسان في هذا الكوكب وان كلما فيه مختص به مسخر له .

وباختصار يمكن القول : إن ابن خلدون "فقيه أصولي مجتهد" وهو أستاذ كانت دروسه أصلاً في التفسير والحديث والفقه وقد حرص في كل أفكاره التي عرفت بالنظريات فيما بعد على أن يدعم كلا منهما بما يؤكد إسلاميته بأية قرآنية أو أكثر أو حديث شريف أو عمل مأثور أو فواصل إيمانية . إن ما آلت إليه الأوضاع الاجتماعية من فساد وانحطاط في عصر ابن خلدون جعله ينصرف لدراسة المجتمع يطلب من الدروس والعبر التي شأنها أن تساعد على فهم الحاضر ومشاكله ، لا ريب إن ابن خلدون اعتمد على التراث المعرفي الإسلامي الذي بدأه الإسلام وشكل تطوره فيما بعد عملية تاريخية طويلة عمقها الواقع الاجتماعي ، فكغيرها من الحضارات السابقة اتسمت الحضارة الإسلامية بمنهجها الخاص المميز لها وترد أصول هذا المنهج إلى القرآن الكريم آفاق المعرفة عند المسلمين فانصرفوا لدراسة الكون والاستدلال على ظواهره والبرهان عليها لقد سلك ابن خلدون مسلكاً علمياً لم يكن مألوفاً لدى سلفه إذ جاءت فلسفته المعرفية خلاصة ثقافته الفكرية الإسلامية وتجاربه وخبراته لاسيما ثقافته القرآنية . اما الجانب الثقافي فيتمثل في تحصيل ابن خلدون للعلم ثم عطائه فيه ذلك العطاء الوفير المتسم بعمق الفكر ودقة استقراء الأحداث ففي الجانب التحصيلي حفظ القرآن ودرس علومه كما درس الحديث الشريف والفقه والأصول واللغة والأدب والمنطق والفلسفة ولقد جلس ابن خلدون للتدريس في أكثر البلدان التي حل بها وكانت المساجد الكبرى والمدارس الشهيرة مقراً لحلقات دروسه كما تولى التدريس في الأزهر الشريف واستطاع من خلال ذلك إن أفكاره إلى عدد كبير من الدارسين المصريين وغيرهم من الوافدين إلى مصر . هذا هو المعين الذي نهل منه ابن خلدون ومما عمق ذلك تجارب الرجل وخبراته وحياته وتأملاته كانت حياته مدرسة استطلع من خلالها مجتمع عصره فلاحظ حوادث الأيام وجمعها وصنفها وهكذا وليس المنهج الخلدوني طفرة بقدر ما هو حصاد التراث المعرفي الإسلامي لكنه يشكل بحق ثورة في تاريخ فلسفة المعرفة .

سنتناول في هذا البحث موضوعاً إسلامياً بحثاً ولم نعتمد مصادر كثيرة في ذلك ، لأننا سنقوم بتحليل الفكر الديني من خلال قراءتنا لمقدمة ابن خلدون ونقتبس بتصرف ما يتعلق بتوجهه الديني وربطه بعلمي الانثروبولوجيا والاجتماع ، من خلال تبين بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والمضامين الدينية التي تضمنتها مقدمته الشهيرة وعلاقتها بسلوك الجماعات وأعمالهم وربط ذلك بالظواهر الاجتماعية في القرآن الكريم .. وسيتضمن البحث المحاور الآتية :

## أبن آلءون والءراء الإسلامى .

اعءمء أبن آلءون على الءراء المعرفى الإسلامى الذى بءأه الإسلام ، والسبب فى ذلك هو ما آلت إله الأوضاع الاجفماعية من فساء وانءطاط فى عصره جعله ىنصرف إلى ءراسة عمق الواقع الاجفماعى ، واعءماء منهج القرآن الكرىم فى حل مشاكمل المءفمع لأنه ىسءطىع مءاطبة عقول البشر وءواسهم وءءسمهم وهكذا فءء القرآن الكرىم أفاق المعرفة عءء المسلمىن فأنصرفوا لءراسة الكون والاسءءلال على ظواهره والبرهان عليها وقء نلاحظ إن أبن آلءون سلك مسلكاً علمياً لم ىكن مألوفاً ممن سبقوه نءىجة لءقاففه القرآنىة وهى ءعء فلسفة معرفىة فكرىة إسلامىة . والءقافة الفكرىة الإسلامىة عءء أبن آلءون جاءء نءىجة فكره العمىق وءقة اسءقراء الأحداث ، فى الجانب الءءصىلى فءظ القرآن وءرس علومه وءرس الءءء الشرىف والفقه والأصول واللغة والأءب والمنطق ، فءء ءرس أبن آلءون فى المساء الكبرى كما فى الءءرىس فى الأزهر الشرىف ، وأسءطاع من ذلك نشر أفكاره الإسلامىة إلى عءء كبرى من الءارسىن المصرىىن وعرهم وفى أكثر البلدان الءى ظل بها . وإن أصل المعرفة الإسلامىة عءء أبن آلءون ءآنى من اعءماءه مصادر أساسىة معرفىة هى (١):

(الءقىقة إن فكر أبن آلءونى الإسلامى مءءمءه ءءىن بالجانب الأكبر من روءها مسءءوءاة من القرآن

**الكرىم** : بل هو مءىن للقرآن على ءء كبرى ءى فى أءكامه على الأخلاق والطبائع ، إن القرآن الكرىم بقصصه على ءىاة المءفمعاء العابرة وانءءارها وءورءها الءارىخىة كان مصادر إلهام لأبن آلءون . فالقرآن ىءء الإنسان على اصءناع منهج العلم القائم على النظر فى الكون بالقىاس والاسءقراء أو هما معاً بقصء الوصول إلى المعرفة ، ومن ءم **الءءء الشرىف** : شكلاء الأحاءىء النبوىة الشرىفة من الءءءىاء المعرفة الأساسىة للمسلمىن بعء القرآن الكرىم ، وقء انبرى الفقهاء لوضع قواعد لءمع الءءء فى الصءق والاعءماء على اللفظ ءون المعنى ، وقء اعءبرىء الأحاءىء النبوىة الشرىفة الماة الواسعة الءى ءشممل جمىع المعارف الءىنىة ءقربياً ، فهو ىشممل الءفسىر بمعنى إن الءءء فسىر لآىة قرآنىة والءكم الفقهى ، أو فى شرح الءالة الاجفماعىة . إنء هناك علاقة وطىءة لفكر آلءونى بالقرآن الكرىم والءءء الشرىف ونسءطىع القول أىضاً بأن أبن آلءون من أولئك اللذىن ءربوا فى أءضان الإسلام وءعالىمه ، فملامء الءففىر الإسلامى فى كءبه ونظرىاءه ءءجلى فى طرىقه الءى ءناول فىها ءراسة المءفمعاء المءءلفة وفى مءمءه الشهىرة " كءاب العبر والمبءء والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ءوى السلطان الأكبر " ) .

## مفهوم القرآن الكرىم فى الفكر آلءونى .

إن مفهوم القرآن الكرىم عءء أبن آلءون هو مفهوم شرعى وعلمى معاً هو : " كلام الله المنزل على نبىه مءء (ص) المءكءوب فى الصءف " وأبن آلءون عارف بعوم القرآن وأءكامه ، ءم له فى الفرق بىن الءهءة والرسم فى المصءف رأى ىوصفه فى أن العرب كانوا بعىءىن عن الصنائع كلها ومنها صناعة الخط . وىوكء أبن آلءون على ضرورة إءاةة الأداء عءء قراء القرآن الكرىم ، أى أداء الءروف على وءهها من مءارءها المءصوصة وبمءوءها المعىنة ، أما الءلءىن فىنءزه بقءر إذا ساعء على حسن الأداء ، وىرى أن ءفسىر القرآن الكرىم ىمكن أن ىكون عن طرىق اللغة والبلاغة ، فضلا عن ذلك ىعرض أبن آلءون فى مءمءه ءفسىرا لعدد من الآىاء الكرىمة أشهرها آىتان " ألم ءر كىف فءل ربك ، أرم ءاء العباء " سورة الفجر ، آىة ٧ (٢) . وىسءشهد أبن آلءون بما وءء فى القرآن الكرىم فىما ىءعلق بالعمران الإنسانى فأن الشواءد علىه كءبىرة وأءلءه من القرآن والسنة كءبىرة هى الأءرى . كما بىن موقفه من الءءء وهو موقف لاءق بالقرآن الكرىم ، كان أبن آلءون عارفاً وبارعاً بعوم الءءء ، وهو ىرىء أن ىفسر الءءء بالعقل وقء ءءاول موضوعاء عءء فى هذا الءصوص ، مءل الانءقال من البءو إلى الءضر وءءء الفلاءة وهو ىمءء بالءىن

والفقوى ويففخر بفلك كله . فف ديباجة مقفمفه فذكر فقفم كفافه إلى السلطان فارس عبف العرفز (سلطان المغرب) ففقول " ٠٠٠ من ملوك بني مرفن اللفن ففءوا الففن ونهفوا السبفل إلى المهففن ، ومفوا آفار البغة والمفسفن ) "(٣).

أفاء حرص أبف ففءون على أن ففخم كل فصل من فصول المقفمة طال فلك الفصل أو قصر بففواهف قرآففة . وقف ألفزف أبف ففءون بفذا المنهج الفزافاً فقفاً ، ورافى أن فكون هفذه الآفاف ذات علاقة فوهرففة بالموضوع الفف ففناوله لقف اففزنا عفاً من فصول المقفمة بالففابع بلغ عفءفها فلاثة وثلاثفن فصلاً ، فوففنا عفا الآفاف القرآففة الفف ففم بفها أربعاً وعشرفن آفة ، وفففاً نبوفاً شرففاً ، وعفا من الفمل ذات المعافف القرآففة الكررفة ، وعفاً أفر من عباراف الفمففد الإلهف وصفغ الابففال الربافف ومن بففن الشفوافه هف :

\* فف فافمة اسفففاح المقفمة ففشر إلى قوله فعالى " حسبنا الله ونعم الوكفل " سورة آل عمران آفة ١٧٣ .

\* فف أن البفو أقرب إلى الشفاعة والأصالة بقوله " الله فخلق ما فشاء " سورة آل عمران آفة ٤٧ .

\* فف البفب والشرف والأصالة ، ففخفمه بقوله فعالى " والله بكل شفء علفم " سورة النور آفة ٣٥ .

\* فف الرفاة على أهل العصرفة بقوله فعالى " والله عالم الغفب والشهادة " سورة الأنعام آفة ٧٣ .

\* فصل فف فقفقة النبوة والكهانة والرؤفا ففخفمه بقوله فعالى " والله فعلم وانفم لا فعلمون " سورة النور آفة ١٩

\* فصل فف افثر الهواء فف أخلاق البشر ففخفمه بقوله فعالى " الله ففهف من فشاء إلى صراط مسفقم " سورة البقرة آفة ٢١٣ .

\* فصل فف أن من عوافق الملك فصول الفرف ففخفمفه بقوله فعالى " قل اللهم مالك الملك فوفف الملك من فشاء وففزف الملك ممن فشاء " سورة آل عمران آفة ٢٦ .

\* فصل فف اففلاف أفاال العمران فف الخصب والفوف ففخفمفه بقوله فعالى " انه بكل شفء مففط " سورة فصلف آفة ٥٤ .

\* فف أن الربفف الشمالي من الأرض أكفثر عمراناف . ففخفمه بقوله فعالى " وأن فف فخلق السماواف والأرض واففلاف اللفل والنهار لآفاف لأولى الأباف " سورة آل عمران آفة ١٩٠ .

وقف وففبف بعض شفوافف الفعاء والففسفف فف بعض فصول المقفمة :

- فف قسط العمران من الأرض ، ففخفمفه بالفعاء (والله الموفق) .
- فف طبففة العمران ، وففخفمفه بالفعاء (والله ولف الفوففق والهفاة) .
- فف فضل علم الفارفف ، وففخفمفه بالفعاء (والله الهافف إلى الصواب) .

وقف بلغت الشفوافف القرآففة والأففةة والففسفف فف مقفمة أبف ففءون ما فقارب مائفف وسبعفن شاهف منها ما فقارب فلاثة وثمانفن فرف ففها الصفغة " الله اعلم " مفرفة أو على شكل فراكفب مثل قوله والله سبحانه و فعالى اعلم ، وبه الفوففق . وإذا أراد الله بفوم سوءاً فلا مرء له ، والله فعالى اعلم . وهفالك اففان وعشرون شاهف ففعلق بفلم الله فف ففر صفغة الففضفل فو : سبحان الحكفم العلفم . وفوف كل فف علم علفم . ٠٠٠ والله سبحانه و فعالى فعلم ما فكن .

مما تقدم نستنتج إن ابن خلدون كان دعوباً وحريصاً أن يختم كل فصل من فصول مقدمته بشواهد قرآنية مستمدة قدر الإمكان من موضوع الفصل المخصوص بها ٠٠ وكثيراً ما تكون هذه الشواهد في نهايات الفصول كقوله والله أعلم ٠٠ والله موفق ٠٠ والله يخلق ما يشاء سبحانه ٠ ونستنتج أيضاً أن ابن خلدون قد حفظ من القرآن الكريم منذ صباه حيث يقول : " وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي ، قرأته بالقراءات السبع أفراد وجمعاً في إحدى وعشرين ختمه ، ثم جمعتها في ختمه واحدة أخرى .

### الدولة والملك والباعة في الفكر الإسلامي الخلدوني .

لقد وصف ابن خلدون أعمار الدول والملك والباعة في مقدمته من خلال بعض النصوص القرآنية الكريمة إذ يقول : إن نظرية أعمار الدول نفسها نظرية قرآنية ، حيث أستقى ابن خلدون فكرتها وأساسها من القرآن الكريم الذي يحفظه ويعي أحكامه كما أسلفنا ، أن القرآن الكريم ينص في آيات كثيرة أن للدولة أعماراً ينتهي كيانها بنهايتها ثم تخلفها دول أخرى أكثر نظاماً وأشد قوة وأوفر صلاحاً ، فالله سبحانه وتعالى يشير إلى القرية وفي آيات أخرى القرى هي الدولة أو الدول ، والقرية الظالمة هي الدولة الفاسدة فالظلم هو أشد ألوان الفساد (٤) ، كما في قوله تعالى " وكم قصمنا من قرية ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين " سورة الأنبياء آية ١١ .

ويقرر ابن خلدون أن للدولة " أعماراً " كأعمار الأشخاص ، بمعنى إنه إذا كان لكل شخص عمر محدد تنتهي حياته بنهايته ، فإنه للدولة أعماراً محددة تنتهي ويزول سلطانها بنهايته ، ويقول ابن خلدون أن عمر الدولة لا يعدو أعمار ثلاثة أجيال وهو يقدر الجيل بأربعين سنة ( ٥ ) ، ويستشهد بقوله تعالى " فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " سورة الأعراف آية ٣٤ . ويشدد ابن خلدون على حتمية نهاية أعمار الدول ، ومن هنا فإن نظرية أعمار الدول هي في ظاهرها وباطنها وجوهرها نظرية قرآنية كما في قوله تعالى " قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله " سورة يونس آية ٤٩ . ويستشهد ابن خلدون أيضاً في الآية القرآنية الكريمة " عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون " سورة الأعراف آية ١٢٩ . إذ يرى في هذه الآية أن الدولة تولد قوية على صلاح على أطلال دولة فاسدة ، وتظل الدولة الصالحة على قيد الحياة ما دام عدلها مستمراً فهلاك العدو في الآية الكريمة يعني هلاك دولته ، والاستخلاف في الأرض يكون بميلاد دولة مكان دولة العدو . وهذا تعبير واضح من ابن خلدون عند نشأة الدولة ومولدها ، كما أنه تحدث عن القوة والنماء إذ ذكر قوله تعالى " وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " سورة النحل آية ١١٢ . وتعد هذه مرحلة مهمة من أعمار الدول ( القوة والنماء ) بعد مرحلة نشأة الدولة ومولدها التي تحدثنا عنها قبلها (٦).

ويقصد بالمرحلة الثانية بما تعبر عنه الآية الكريمة ، إن الدولة هنا كانت في مرحلة الاستقرار والأمن والازدهار ، فلما انصرفت عن النعمة المتمثلة بالقوة ، ومالت إلى البطور والظلم انتهى بها الأمر إلى الانحلال والضياع . أما الشواهد القرآنية في المرحلة الثالثة مرحلة الانحلال والضياع تمثل هذه المرحلة بالآية الكريمة " وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً " سورة الكهف آية ٥٩ . وقوله تعالى " وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً وكان ذلك في الكتاب مسطوراً " سورة الإسراء آية ٥٨ . وفي قوله تعالى " وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " سورة هود آية ١١٧ . وقوله تعالى " وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمتها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون " سورة القصص آية ٥٩ . والملاحظ من الآيات القرآنية الكريمة والتي أستشهد منها عن الضياع والانحلال في الدولة ٠٠ إن هذه الآيات أكدت مهلك الدولة أي

نهايتها ، وارتبط هلاكها ونهايتها بفسادها في الأرض بالظلم الذي يمارسه حكامها ، وتتطرق هذه الآيات الكريمة إلى مبدأ نهاية عمر الدولة . اما " **الملك** " فقد وصفه ابن خلدون في فكره لاسيما في مقدمته الشهيرة ، وأستشهد بقوله تعالى "أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً" سورة آية ١١٥ . والملك الذي يعنيه ابن خلدون هنا اهتمامه بالإنسان يشمل دنياه وآخرته ، ذلك أن القوانين التي تطبق على المجتمع الإنساني يجب أن تكون إلهية، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم كلها عبث وباطل . اما وصفه **للبيعة** لقد أسرف ابن خلدون في النيل من التجارة والتجار، وفي هذه الآية الكريمة الآتية يقصد الباعة وسوقهم، أما التجارة فمهنة كريمة ، وأن أصحاب المروءة من الرجال هم الأكثرية من التجار (٧) ، إذ يذكر قوله تعالى "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين" سورة البقرة آية ٢٥١ .

إذا نخلص مما تقدم في وصف الدولة والملك والباعة أن رأس الدولة في العمران الخلدوني هو الأمام أو الخليفة فأنها عنده وظيفة دينية سياسية اجتماعية ، وكل هذه الآراء تمثل عمق الفكر ودقة الاستقراء والتي عبرت بشكل واضح عن عمق إيمان ابن خلدون بالله . . . والملاحظ عن مستهل حديثه في نظريته في العمران بعيد كل البعد عن المادية التي نسبت إليه من بعض الذين أعجبوا به ، بل إنه يقرر انسجاماً مع عقيدته في وضوح كامل ، إن معنى العمران هو ما أراده الله من اعتماد العلم نبني الإنسان واستخلافه إياهم في الأرض ، فالعمران عنده اصطلاح قرآني صريح وقيمة سلامية واضحة وهو استخلاف الله للإنسان في هذا الكوكب . باختصار أن ابن خلدون فقيه أصولي مجتهد ، وهو أستاذ كانت دروسه أصلاً في التفسير والحديث والفقه ، وقد حرص في كل أفكاره التي عرفت بالنظريات فيما بعد على أن يدعم كل منهما بما يؤكد إسلاميتها بأية قرآنية أو حديث شريف أو عمل مأثور . ويمكن القول أن ابن خلدون نتاج بيئته وحصاد مجتمعه ونتاج ثقافته ، كان عالماً من علماء المسلمين وفقهياً من فقهاء الشريعة ، وعالماً من أعلام المذهب المالكي ، ومن ثم في نظرياته كما بينا من منطلق إسلامي محضاً ، فنظرية العمران التي اوضحناها تعد أهم منجزاته الفكرية ، إسلامية جملةً وتفصيلاً ونظريته في مجال العصبية كان سبيله في علاجها سبيلاً إسلامياً . لقد اعتمد ابن خلدون الأسس الإسلامية وهو يقدم نظرياته ، ونظام الحكم الذي رآه مناسباً للعمران وهو نظام الخلافة الإسلامية . إذن كان ابن خلدون إسلامي الخطوات في المقدمة من أولها إلى آخرها بحيث يتحتم إلا يكون فكره إلا إسلامياً ، وهو ما لم ينتبه إليه دارسوا الفكر الخلدوني . . وهو بهذا مؤسس علم الاجتماع الإسلامي .

### **القرآن الكريم ونظرية ابن خلدون الاجتماعية .**

إن علم الاجتماع هو العلم الذي يدرس التفاعل الناشئ عن تجمع البشر في مجتمع ما من خلال العلاقات أو الظواهر والواقع الاجتماعي في إطار منهج علمي وموضوعي يعبر عما هو كائن . فالقرآن الكريم يذكر العديد من أمثلة الظواهر الاجتماعية التي تردت لدى الأقسام الذين أرسلت لهديهم كظاهرة التقاليد والترف والظلم والاستبداد في الحكم والإجرام وعبادة الأوثان والكواكب وتقديس الحيوان من الملائكة والجن ووآد البنات واحتقار المرأة واستغلال المستغلين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وإلى ظهور الطبقة (طبقة رجال الدين ، طبقة المتكبرين ، وطبقة الضعفاء) . وأفاد ابن خلدون من القرآن الكريم في أنشاء نظريته الاجتماعية فائدة غير قليلة وقد نادى بذلك بعلمه " علم الاجتماع " بدراسته للظواهر الاجتماعية أو " العمران البشري " في مقدمته الشهيرة إذ يقول : " وكان هذا علماً مستقلاً بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماعي والإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض لذاته واحدة بعد الأخرى ، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً " (٨) .

ومن الظواهر الاجتماعية التي وصفها القرآن الكريم والتي يشير إليها في المقدمة " ذم الترف " وتبيان أثره في هلاك الأمم كما يشير القرآن الكريم في كثير من آياته إلى ارتباط الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها في الظواهر

الاجتماعية من خلال أحوال الأقوام الغابرة والأمم السالفة ارتباطاً عما يسميه العلماء المحدثون بالقانون أو النظرية أو التعميم . وقد ذكر في " القرآن الكريم " ثم الترف " لكي يحذر الناس من عواقبه السيئة في دينهم ودنياهم ، أما أين خلدون فقد عد الترف أمراً اجتماعياً محتوماً لأبد من وقوعه في الحضارة ، ولا يستطيع الناس أن يتخلصوا منه عند التحضير إذ هو يكون جزء من عاداتهم ، والعادات عند ابن خلدون قاسرة (٩) .

### الظواهر الاجتماعية والقرآن الكريم ومقدمة ابن خلدون.

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا الشأن أشار إليها ابن خلدون في مقدمته يمكن إجمالها بالآتي:

\* يصف القرآن الكريم المترفين بأنهم سبب هلاك المجتمع في قوله تعالى " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً " سورة الإسراء ، آية ١٦ .

\* ويصف القرآن الكريم أولئك المترفين بأنهم يقاومون الدعوات الدينية بقوله تعالى " وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون " سورة سبأ ، آية ٣٤ .

\* ثم يصفهم بأنهم متعصبون لعقائد آبائهم ، حسنة كانت أم سيئة وذلك بقوله تعالى " وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه أباؤكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون " سورة الزخرف ، آية ٢٣ .

والواقع إننا نجد تشابهاً كبيراً بين المفاهيم القرآنية وما جاء في مقدمة ابن خلدون من " ثم وترف " ، إذ أن ابن خلدون حول موضوع الترف من إطاره الديني الذي نشهده في القرآن الكريم إلى إطار آخر هو الإطار الاجتماعي . وقد شرحه شرحاً اجتماعياً رائعاً . إذ وضع كيف يؤدي الترف بأصحابه إلى التحلي بالأخلاق السيئة " كالكذب والمقامرة والغش والخداع والسرقة والربا بالمبيعات " ، ففي رأيه أن في ذلك أمر طبيعي تؤدي إليه عادات الترف من حيث التألق في المطابخ والملابس والمباني والفرش فتتلون النفس إلى التفنن في تحصيل المعاش ، وتنصرف إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له ، فلا تبالي عندئذ بالأخلاق الحميدة التي أمرت بها الشريعة الإسلامية . . ويقول ابن خلدون : " ومن مفاصد الحضارة الانهماك في الشهوات ، والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفنن في شهوات البطن من المأكول والملاذ ، ويتبع ذلك في الشهوات من الزنا واللواط . . فأفهم ذلك وأعتبر به إن غاية العمران هي الحضارة والترف وإنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات " .

ومن طرائف ما جاء به ابن خلدون في هذا الصدد انتقاده لفكرة كانت شائعة بين الناس في زمانه ، إذ كانوا يقولون " إن المدينة إذا كانت فيها غرس النارج تأذن بالخراب " يقول ابن خلدون أن الكثيرين من العامة يتحامون غرس النارج في دورهم ظناً منهم في النارج خاصية تؤدي بغارسه إلى الخراب ، وفي هذا يرى ابن خلدون أن الأمر ليس بهذا المعنى ، إنما معناه (أن البساتين وغجراء المياه من توابع الحضارة) ، إذ إن النارج وأمثاله مما لا طعم له ولا منفعة فيه وهو لا يغرس في البساتين إلا من أجل شكله فقط ، ولا يفعل الناس ذلك إلا بعد التفنن في مذاهب الترف وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه ولقد قيل مثل ذلك في " الدفلى " وهو من هذا القبيل ، إذ " الدفلى " لا يقصد به تلون البساتين بورودها ما بين أحمر وأبيض ، وهو من مذاهب الترف (١٠) .

ويعتقد ابن خلدون أن " الترف " يزيد الدولة في أولها قوة والسبب في ذلك أن القبائل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومة ، واستكثروا أيضاً من الموالى والصنائع وربيت أجيالهم في نعيم ، فازدادوا بهم

عدداً إلى عددهم ، وقوة إلى قوتهم ، بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد ، فإذا ذهب الجيل الأول والثاني ، وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم في تأسيس الدولة ، وتمهيد ملكها ليس لهم من الأمر شيء ، إنما كانوا عيالاً على أهلها ، ومعونة لها ، فإذا ذهب الأصل ، لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة ، وأعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الإسلام ، إذ كان عدد العرب لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفاً أو ما يقاربها من مصر وقحطان ، ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة ، واستكثر الخلفاء من الموالي والصنائع بلغ ذلك العدد إلى أضعافه (١١).

ومن هنا يمكن القول، إن الظواهر الاجتماعية ترتبط بالقرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً لما لها من تأثير على الأفراد داخل المجتمع ، ويكون تأثيرها كبيراً عندما تكون نابعة من خلال الآيات القرآنية التي تمثل المبادئ الأساسية للتعامل خاصة المسلمين في المجتمعات الإسلامية ، ولا بد من الإشارة أيضاً إلى بعض الأحاديث الشريفة التي ترتبط بالظواهر الاجتماعية إذ يشير الحديث الشريف إلى الارتباط العلمي بين الظواهر الاجتماعية ونتائجها فقد ورد عن ابن عباس : قال رسول الله ( ص ) " ما ظهر من الغلول في قوم إلا ألقى الله تعالى في قلوبهم العب ، ولا فشي الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت ولا نقص المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم . وبهذا يسوق الحديث الشريف عدداً من القواعد والسنن المطرودة في الظواهر الاجتماعية التي تسود المجتمعات ، فالفلول والسرقة ونهب الأموال العامة يورث الخوف والرعب في قلوب السارقين الذين يصبح كل منهم غير آمن على نفسه أن تتكشف خيانتة وحينئذ يدب الرعب وينتشر الهلع وتستشري الرهبة في نفوس القوم مما يفقد شجاعتهم وقدرتهم على الآخرين ، وكذلك الزنا حين ينتشر بين قوم ما يؤدي إلى العزوف عن الزواج والبعد عن تكوين أو اصر الأسر تكويناً طبيعياً اجتماعياً ، مما يؤدي إلى نقص في الأنفس وقلة في النسل يعقبها كثرة في الموت وميل إلى الانقراض العدي ، وكذلك ظاهرة إنقاص الكيل والميزان وبخس الناس حقوقهم تؤدي إلى قطع الله الرزق عن هؤلاء جزاء وفقاً لجشعهم وسوء حكمهم ، وكذلك الحكم بغير الحق أي الظلم في القضاء من شأنه انعدام الأمان وهذا يؤدي إلى انتشار ظاهرة الأخذ بالثأر ، وحصول صاحب الحق على حقه بنفسه . وإذا كان القانون هو ترابط علمي مطرد بين ظاهرتين من ظواهر اجتماعية ، فإن القرآن الكريم والحديث الشريف يشيران إلى هذا الارتباط المطرد في حياة الجماعات والأفراد من خلال تفنن السلوك وما ترتب عليه من الجزاء في الدنيا والآخرة ولفت النظر إلى سنن الله تعالى في الأقوام والجماعات .

وأكد أبين خلدون من خلال عملية الربط بين الظواهر الاجتماعية من جهة والقرآن الكريم من جهة أخرى في معالجة ما نسميه بواقعات العمران البشري أو الاجتماع الإنساني إذ يقول : " إنه لما كانت حقيقة التاريخ إنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض \_ وما ينشأ عن ذلك كله من الملك والدول ومراتبها \_ وما ينتحله البشر بأعمالهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث ذلك العمران بطبيعة العمران " . ويقول كذلك في المقدمة : " ونحن الآن في هذا الكتاب " يقصد المقدمة " وما يعرض للبشر في اجتماعاتهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع " إن أبين خلدون كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وشمولها كل مرافق الحياة وإنه لم يغادر أي قسم من أقسامها إلا عرض له دراسة (١٢) .

يتضح مما تقدم لقد توصل أبين خلدون إلى أهم القوانين في مجال الفكر الاجتماعي إلا وهي قوانين الحركة والتطور التي تشبه قوانين الكائنات الحية في العالم الطبيعي وهي كائنات لا تقف على حالة واحدة وإنما تتطور من الصغر ، النمو ، الكبر والهرم ، وأبين خلدون ينتقل من فكرة القانون إلى فكرة الحياة وتطورها في نظام دقيق ، وهنا



تأخذ نظريته شكلاً حيويًا بايولوجيًا يقارن فيه المجتمع وحياته بالجسم الحي وحياته • وفي هذا يسبق (أوجست كومت) من ناحية فكرة تطور الحياة الاجتماعية ، ويسبق ( هربرت سبنسر ) فكرة بناء التطور الاجتماعي على الناحية الحيوية ، ويقول أبين خلدون في هذا ما نصه: ( إن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوب كما إن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً ) ، وبناءً على الأساس الحيوي يبني أبين خلدون حركة التطور في المجتمع بالمقارنة بحركات الكائن الحي الذي لا يدوم نموه وارتقاؤه وإنما لا بد من أن يضعف وينحل وينتهي بالموت قطعاً ، والمجتمع البشري يتبع نفس هذا الاتجاه الحركي ، " وتمثل هذه الحركة عند أبين خلدون في أربع مراحل متعاقبة لحياة المجتمع تتدرج من البساطة إلى التعقيد : الحالة الأولى يسميها البداوة ، والحالة الثانية يسميها بحالة الملك ، والحالة الثالثة يسميها بحالة الحضارة أما الحالة الرابعة فهي الحالة التي تهزم فيها الدولة وتضعف فيها شؤون المجتمع ويسميها بحالة الاضمحلال والخراب " (١٣).

ولعلنا نلاحظ أن أبين خلدون وهو في مستهل حديثه عن نظريته في العمران بعيد كل البعد عن المادية التي نسبها بعض ممن أعجبوا به إليها بل إن الرجل يقرر \_ انسجاماً مع عقيدته \_ في وضوح كامل أن معنى العمران هو ما أراده الله من أعمار العالم يبني الإنسان واستخلافه إياهم في الأرض ، فالعمران عند أبين خلدون اصطلاح قرآني صريح ، وقيمة إسلامية واضحة وهو استخلاف الله للإنسان في هذا الكوكب وما يحيط به •

#### مصادر البحث وهوامشه

- القرآن الكريم .
- الحديث النبوي الشريف.
- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ج١، دار العودة، بيروت، ١٩٨١ .
- ابن خلدون ، المقدمة-تاريخ العلامة ابن خلدون، ج٢، ط١، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ .
- ١- د.زكي محمد إسماعيل، نحو علم اجتماع إسلامي . دار المطبوعات الجديدة ، الرياض ، السعودية، ١٩٨١، ص١٥ .
- ٢- المصدر نفسه ، ص١٦ .
- ٣- المصدر نفسه، المكان نفسه .
- ٤- د.علي حسين جابر، مفكرو الإسلام والعمران البشري، دار مكتبة البصائر، بيروت، لبنان، ٢٠١١، ص ١٠٧ .
- ٥- د.كاستون بوتول، ابن خلدون فلسفته الاجتماعية، ترجمة عادل زعيتر، شركة نوايغ الفكر ، القاهرة، ط١ ، ٢٠٠٨، ص٥٣ .
- ٦- د.علي حسين جابر ، مصدر سابق ، ص١١٣ .
- ٧- د.كاستون بوتول ، مصدر سابق، ص ص ٥٥-٥٧ .
- ٨- د.محمد محمود الجواهري، المدخل إلى علم الاجتماع، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٣، ص ص ١٣-١٥ .
- ٩- العلامة محمد نقي المدرسي ، المجتمع الإسلامي- منطلقاته وأهدافه، المركز الإسلامي الثقافي، النجف، ١٩٨٢ ص ٢٩ - ٣٦ .
- ١٠- د.زكي محمد إسماعيل ، مصدر سابق ، ص ١٧ .
- ١١- براينر تيرنر ، علم الاجتماع والإسلام ، ترجمة :أبو بكر احمد باقادر، دار جداول للنشر ، لبنان ، ٢٠١٣ ، ص ٥٦ .
- ١٢- المصدر نفسه ، ص ٥٧ .
- ١٣- د.متعب مناف جاسم ، تاريخ الفكر الاجتماعي ، دار مكتبة البصائر ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠١ ، ١٨٩ .